المحاضرة 02

الازدواجية اللغوية

أولا–مفهوم الازدواجية اللغوية:

المقصود بالازدواجية اللغوية (La diglossie)هو استعمال مستويين لغويين مختلفين: أحدهما من مستوى فصيح، والثاني عامي. يعرّفها اللساني الأمريكي شارل فرغيسون "**Charles Ferguson**" بأنّها: "حالة لغوية ثابتة نسبيا، يوجد فيها فضلا عن اللهجات الأساسية –التي ربما تضم نمطا محددا أو أنماطا مختلفة باختلاف الأقاليم– نمط آخر في اللغة مختلف، عالي التصنيف، وفي غالب الأحيان أكثر تعقيدا من الناحية القواعدية، فوقي المكانة وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو لجماعة سالفة، يتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية، ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنه لا يستعمل من قبل أي قطاع من قطاعات الجماعات المحلية للمخاطبة أو المحادثة".

فهي إذا حالة لغوية تتضمن نمطين لغويين: نمطا لغويا عاليا وراقيا ورفيعا معترفا به، يتعلمه الناس في المدارس الحكومية، ويتخذ طابعا رسميا ومؤسساتيا، ويستخدم لأغراض كتابية وتواصلية، وأيضا في المحادثات الرسمية، كاللغة العربية الفصحى مثلا ونمطا عاميا وشعبيا متدنيا، يستعمله الناس لأغراض تواصلية شفوية عادية. كما يستعمل داخل المنزل والأسرة والشارع، كما هو حال الدارجة أو العامية المحلية .

ثانيا–الازدواجية اللغوية، والثنائية اللغوية، والتعدد اللغوي:

يتداخل المصطلحان "الازدواجية اللغوية" "والثنائية اللغوية" بسبب تباين آراء اللسانيين حولهما، إذ يعني مصطلح ""الازدواجية اللغوية" (Diglossie) وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة"، أي لغة للعلم والفكر، ولغة أخرى للحياة اليومية العادية، ويطلق مصطلح الثنائية اللغوية على هذا المفهوم أيضا (Bilinguisme).

بينما يطلق مصطلح الازدواجية على لغتين مختلفتين، وهكذا نرى تبادل مصطلحي "الازدواجية" و"الثنائية" المواقع بوضع أحدهما موضع الآخر، تبعا لمشارب المدارس اللسانية، وتوجهات الأفراد.

ويذهب اللساني الأمريكي جوشوا فيشمان (Joshua Fishman) إلى أن الثنائية تعني عنده قدرة الفرد على استخدام عدد من اللغات، وهذا يدخل ضمن اللسانيات النفسية وأن الازدواجية تعني استخدام عدد من اللغات في المجتمع، وهذا يدخل ضمن اللسانيات الاجتماعية، ففيشمان لا يولي عناية كبيرة لوجود شفرتين مختلفتين عربية فرنسية مثلا.

وقد اختار عبد الرحمن بن محمد القعود مصطلح الازدواجية للتعبير عن مستويين في لغة واحدة فقال: "الازدواج اللغوي وفق المفهوم الذي اخترته هو وجود مستويين في اللغة العربية، مستوى الفصيحة، ومستوى الدارجة أو مقابلاتها مثل العامية أو اللهجة".

وهو عكس ما اختاره صالح بلعيد بحيث وظف مصطلح الثنائية اللغوية للتعبير عن وجود مستويين لغويين من أصل واحد كالفصحى والعامية.

أما التعدد اللغوي فهو "استخدام لغتين أو أكثر من قبل شخص ما، أو في مجتمع لغوي محدد، وهي ظاهرة ناشئة عن الهجرات من دولة إلى دولة وعن الاستعمار الذي نشر لغته بعد خروجه من البلدان المستعمرة، والحدود المشتركة بين الدول مما يسمح للغات من التسلل من بلد إلى آخر، وكذلك العولمة المرتكزة على كسر الحدود، واستعمال وسائل الاتصال الواسعة مما سمح لهيمنة بعض اللغات على أخرى.

ثالثا–خصائص ازدواجية اللغة

أورد فرغيسون في بحثه الخصائص والمميزات الواجب توافرها في لغة مجتمع ما كي يتم اعتبار هذا الوضع اللغوي صالحًا لوصفه بازدواجية اللغة، وهي:

1–الوظيفة:

يعتبر فرغيسون ومعظم الذين اتبعوه في دراسة ظاهرة ازدواجية اللغة أن الوظيفة التي يؤديها الشكل اللغوي من أهم خصائص هذه الظاهرة، فهناك بعض المناسبات أو الأوضاع الاجتماعية التي تحتم استخدام اللهجة العليا، كاللهجة العربية الفصحى في مثاله عن اللغة العربية، بينما هناك بعض الأوضاع التي يكون استخدام اللهجة الدنيا، وهذا الاختلاف في الوظيفة يحدث في كل المجتمعات وباختلاف أفراد المجتمع، فلا نستطيع استعمال لهجة متدنية في مقام رفيع، فكل مكان أو مناسبة ما علينا أن نستخدم اللهجة المناسبة لها، كالمناسبات الدينية مثلا نستعمل الشكل اللغوي الأعلى، أما التحدث مع شخص ما في الشارع نستعمل الشكل اللغوي الأدبي كالعامية.

2–المنزلة:

الخاصية الثانية من خصائص ازدواجية اللغة هي المنزلة فاللهجة العليا يعتبرها جميع أفراد المجتمع لهجة عالية المستوى، ولا يقارن مستواها بمستوى اللهجة الدنيا، هذا الاحترام العميق أو المقام العالي الذي تتمتع به اللهجة العليا قد يقود بعض أفراد المجتمع إلى إنكار وجود اللهجة الدنيا؛ فتطور اللغة العربية وما بلغته من مكانة رفيعة في وسط أفراد المجتمع أمر طبيعي مثل باقي اللغات الأخرى، فمنزلة العربية الفصحى تجعلها في أعلى المراتب عكس اللهجة العامية والتي تعتبر انحرافا لغويا عن الفصحى.

3–التراث الأدبي:

في جميع الحالات الدراسية التي ذكرها فرجسون، دائمًا ما يتمتع الشكل الأعلى من اللغة بتراث أدبي أكبر من التراث الأدبي الذي تحظى به اللهجة الدنيا؛ إلا أن هناك من أفراد المجتمع من يرى أن التراث الأدبي للهجة الدنيا كالعامية يمثل أدبًا حقيقياً كالأدب الشعبي وما يحويه من ألغاز وأمثال وحكم ونكت...الخ، فهو جدير بالدراسة والتحليل.

4-الاكتساب:

يقصد بالاكتساب هنا الوسيلة التي يتم عن طريقها اكتساب اللغة كلغة أم، بحيث يرى فرغسون أنه يستخدم البالغون اللهجة العامية أو المحلية (الشكل اللغوي الأدنى) عندما يتحدثون مع أطفالهم، كما أن الأطفال يستخدمون هذا الشكل اللغوي عندما يتحدثون فيما بينهم؛ فالشكل اللغوي الأدنى أو العامية تكتسب سريعًا باعتبارها لغة الحوار اليومي، في حين تصبح الفصحى ثقيلة نوعًا ما عند البعض باعتبارها لغة الحوار داخل المؤسسات التعليمية فقط.

5-الثبات:

تعتبر ظاهرة ازدواجية اللغة وضعًا لغويًا ثابتًا من الممكن استمراره لمئات الأعوام، وفي بعض الحالات قد يصل عمر هذا الثبات إلى ألف عام، فخاصية الثبات تصف وضع اللغة العربية وصفًا جيدًا ولكن هذه الازدواجية لا تلبث أن يستبدل بها بظهور شكل جديد أقل ثباتا ومعايرة، ويكون وسطا بين الشكلين اللغويين.

6-القواعد النحوية:

عندما نذكر كلمة (القواعد) فإن أول ما يتبادر إلى أذهاننا قواعد اللغة العربية أو النحو، والذي لا يشمل الصرف والتراكيب الصوتية وما إليه (...)، ففي مجتمع ازدواجية اللغة يكون هناك اختلاف كبير بين التراكيب النحوية في الشكلين اللغويين الأعلى والأدنى(...)، فالشكل اللغوي الأدنى يفتقر إلى نظام الموافقة بين الأسماء والأفعال التي تتبعها، وهذه الموافقة تكون معدومة تماما في الشكل اللغوي الأدنى، أو قد يكون وجودها على درجة أقل بمراحل من وجودها في الشكل اللغوي الأعلى.

رابعا-الازدواجية اللغوية في اللغة العربية:

كغيرها من اللغات وجدت اللغة العربية نفسها في سيرورة مع لهجات أدنى منها، وقد ذهب الباحثون في هذا المجال إلى أنّ ظهور الازدواجية اللغوية في العربية كلغة فيه قولان:

- أحدهما: يرى الازدواجية جزءا من الظاهرة اللغوية منذ بدايات اللغة. ذلك أن مشكلة الفصحى والعامية في المجتمع العربي ليست جديدة ولا طارئة، إذ تعود جذور هذه المشكلة إلى عهد القدماء منذ النشأة الأولى للغة العربية، فالعصر الجاهلي لم يكن بمنأى عن مثل هذه الازدواجية وإن لم تكن بمثل ما هي عليه اليوم، حيث تظهر الاختلافات اللهجية التي كانت قائمة حينذاك وسائدة مدى هذا الازدواج وإشكاليته فالعرب لم يكونوا ينطقون لهجة واحدة وإنّما لهجات عديدة طالما كان الاختلاف بينها ظاهرا وشديدًا حتى عهد قريب من تنزيل القرآن الكريم.

– **الثاني:** يراها تطورا لغويا اقتضته ظروف خاصة اكتنفت اللغة في فترات من تاريخها. وكثير من الدارسين يرد ذلك إلى ما بعد الفتح العربي الإسلامي الذي نتج عنه دخول أمم وشعوب كثيرة في الإسلام، وأدى ذلك إلى صراع بين العربية واللغات الأخرى نتج عنه هذا الازدواج اللغوي. كما أنّه كلما انتشرت اللغة على أوسع نطاق من الأرض وزاد عدد الناطقين بها لا تستطيع الاحتفاظ بوحدتها الأولى، بل تتبدل وتتحول على ألسنة الناس في جميع مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية وحتى الدلالية. الأمر الذي يبدو واضحا بالنسبة للغة العربية على مر الأزمنة.

عوامل ظهور الازدواجية اللغوية في اللغة العربية:

1-انتشار اللغة العربية في مناطق لم تكن عربية اللسان فقد تغلبت على اللغات اليمنية القديمة في معظم بلاد اليمن، وعلى اللهجات الآرامية في معظم بلاد العراق الشام، وعلى الألسنة القبطية والبربرية والكوشية في مصر وشمال إفريقيا وشرقها. ومن ثمة تأثرت اللغة العربية بلهجات هذه المناطق وانحرفت في ألسنة أهلها انحرافا خاصا اقتضته عاداتهم الصوتية المتأصلة ومناهج ألسنتهم الأولى.

2-عوامل اجتماعية سياسية: كاستقلال البلاد العربية بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزي الذي كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات فمن الواضح أن انفصام الوحدة السياسية يؤدي إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية.

3-عوامل اجتماعية نفسية: تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان وما إلى ذلك فمن الواضح أن الاختلاف في هذه الأمور يتردد صداه في أداة التعبير.

4 . عوامل جغرافية: تمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها وما إلى ذلك، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال و أنهار و بحيرات وهلم جرا، فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدي . عاجلا أو آجلا . إلى فروق وفواصل في اللغات.

5. عوامل شعبية جنسية: تتمثل فيما بين سكان هذه المناطق من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها والأصول التي انحدروا منها فمن الواضح أن لهذه الفروق آثارا بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات.

6. اختلاف أعضاء النطق باختلاف الشعوب: فمن المقرر أن هذه الأعضاء الفيزيولوجية تختلف في بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعا لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتي تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف.

7 . التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق: فمن المقرر أن أعضاء النطق عند الإنسان في تطور طبيعي مطرد في بنيتها واستعدادها ومنهج آدائها لوظائفها؛ فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين إن لم تكن في بنيتها الطبيعية فعلى الأقل في استعداداتها بل إنها لتختلف في ذلك عما كانت عليه عند آبائنا الأقربين. ومن آثار ذلك ثقل وتبدل بعض أصوات اللغة العربية كالجيم والثاء و الذال والظاء و القاف في كثير من البلاد العربية. فنتج عن ذلك ازدواجية (ثوب – توب) (جيم – قيم) (ذئب

- ديب) (ذهن – زهن) (ظلام – ضلام) (قط-أط)...إلخ.

8 . الأخطاء السمعية وسقوط الأصوات الضعيفة: قد تحيط بالصوت بعض المؤثرات التي تعمل على ضعفه بالتدريج كوقوعه في آخر الكلمة وزيادته عن بنيتها وعدم توقف المعنى المقصود عليه فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً حتى يصل في عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع فحينئذ يكون عرضة للسقوط وذلك أن معظم الأطفال الصغار في اكتسابهم للغة العربية في عصرنا الراهن لا يكادون يتبينونه في نطق الكبار فينطقون بالكلمات مجردة منه. والأمر نفسه بالنسبة للحركات الإعرابية كتسكين الكلمات.مثل (أبوكَ -أبوكْ) (أين – فين) (رأس – راس) (الهواء شديدٌ – الهوَ شديدْ) (أذن . ودن) (محمد – مَحم)(سلطان – صلطان) (يصدق – يسدأ) (فاطمة – فاطنة) ...إلخ.

9-تغيير مدلول الكلمات من العام إلى الخاص أو العكس عن طريق التوسع أو المجاز أو انتقالها من السلف إلى الخلف أو بتغير طبيعتها أو عناصرها أو وظائفها الاجتماعية كالريشة والقطار والإبل وغيرها.

10-انقراض بعض الكلمات لانقراض مدلولها أو قلة استخدامه أو لثقلها على اللسان أو لدقة مدلولها. كأسماء الملابس والأثاث وآلات الحروب ووسائل النقل والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية. التي كانت سائدة عند العرب في عصورهم الأولى.